

الأوهام العائرة

(١)

١ - تصدير

الأوهام العائرة هي من قولهم : عارت القصيدة اي سارت بين الناس . والقصيدة هنا للتبيل والتنظير ، لا للتقييد ولا للتحصر . - فالأوهام العائرة هي السائرة بين الناس ، ولا سيما بين حملة البراع ، وأرباب الصحف والكتب والمجلات . وقد ألف كثيرون في هذا الموضوع منذ صدر الإسلام ، بل منذ تأناته الى هذا العهد . وسوف يكتب بعدنا جماعات في نفس هذا البحث الى ان تقوم الساعة . وآخر من أحسن تثقيف مثل هذا الأود اللغوي الكبير الشيخ ابراهيم اليازجي . ثم جاء بعده من عني بطبع تقدياته في كراسة قائمة برأسها فعم تقمها ؛ ثم جاء آخر فاخصر عبارتها وزاد عليها من عنده ، فكانت أقواله في بعض المواطن من تلك الكراسة كالرقعة البالية في الثوب الجديد ، وخبط فيها خبط عشواء ، بل خبطاً شنيعاً مدعيًا ادعاءات فارغةً تضحك التكلّي ، وتبكي الفرّحي ، وسماها (مغالط الكتاب ومناهج الصواب) ثم ظهر بعد الاستاذ اليازجي كثيرون من الادياء واتحلوا تقدياته غير نخجلين من هذه السرقة الدنيئة ، ونشروها بأسمائهم في طائفة من الجرائد والتأليف وهم أصلب من جوزتين في غرارة . ونحن ان كنا نعود الى هذا البحث ، فلأنا نريد ان تنبه هنا بعض من يههم الأمر على مُعقّد وُعبّر وُبجّر لم يذكرها احد قبلنا . فنقول :

٢ - الملاحظات لا الملحوظات

كنا نقرأ في كتب الادب قولهم : « فلان يلاحظ كذا وكذا في ما يقف عليه مثلاً » . وله ملاحظات كثيرة على ما جاء في الكتاب الفلاني » . - والان نقرأ في صحف وكتب حجة قول بعضهم : « فلان يلاحظ كذا وكذا في ما يقف

عليه نظره ، وله ملحوظات كثيرة على ماجاء في الكتاب الفلاني « — ونحن لم نعثر على مثل هذا الاستعمال لهذا الفعل عند حذّاق الكتاب وبصراء المؤلفين . والذي ألفناه من استعمالهم انهم يقولون لاحظ ولاحظه ولم تُلّف من جرى مجرى آخر ، مع ان نقل معنى لفظ الحقيقي الى المعنى المجازي غير محظور . قال في الكليات : « النظر ملاحظة المعلومات الواقعة في ضمن تلك الحركة » (ص ٥٠٥ من طبعة الامتانة) . وقال ابن جني : « ولو لاحظت اول احوالها لكأنت قلقت ... (اخصائص ج ٢ : ٢٥٤) .

٣ — المائة لا القرن ولا الطبق

كنا نستعمل (القرن) بمعنى المائة سنة ، اتماماً بكثير من كتاب العصر . وقد لاحظنا قبل نحو من سنة او اكثر ، ان استعمال القرن بمعنى المائة سنة غير وارد في كلام فصحاء الاقدمين ، فهو من اوضاع مولدنا المتأخرين . أما لغويونا فقد شرحوا القرن بقولهم : « القرن : زمن معين ، او اهل زمن مخصوص . واختار بعض انه حقيقة فيها . واختلف هل هو من الاقتران ، اي الأمة المقترنة في مدة من الزمان ، من قرن الجيل ، لارتفاع سنهم ، او غير ذلك . واختلفوا في مدة القرن ، وتحديدتها ، فقيل : أربعون سنة ، عن ابن الاعرابي ودليله قول الجعدي :

ثلاثة أهلين أنبتهم وكان الإله هو المستأنا

فانه قال هذا وهو ابن مائة وعشرين ، او عشرة^(١) ، او عشرون ، او ثلاثون ، او خمسون ، او ستون ، او سبعون ، او ثمانون . نقلها الزجاج في تفسير قوله تعالى : الم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون . والأخير نقله ابن الاعرابي أيضاً . وقالوا : هذا مقدار المتوسط من أعمار اهل الزمان ، او مائة ، او مائة وعشرون . وفي فتح الباري : اختلفوا في تحديد مدة القرن من عشرة^(١) الى مائة وعشرين ؛ لكن لم أرَ من صرح بالتسعين ولا بمائة وعشرة^(١) وما عدا ذلك فقد قال به قائل . (١) كذا في الاصل ، ولعل الصواب [أو عشر] لأن المقدر [سنوات] وهي مؤنثة .

والاول من القولين الأخيرين اصح . وقال ثعلب : هو الاختيار لقوله ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، لغلام بعد ان مسح راسه : عَشْرَ قَرْنًا ، فعاش مائة سنة . وعبارة المصنف موهمة لأن أول الأقوال التي ذكرها هو اربعون سنة . فتأمل . وبالأخير فسر حديث ان الله يبعث على رأس كل قرن لهذه الامة ، من يجدد أمر دينها ، كما حققه الولي الحافظ السيوطي ، رحمه الله تعالى . وقيل : القرن : كل أمة هلكت فلم يبق منها احد ، وبه فسرت الآية المذكورة . وقيل : الوقت من الزمان ، عن ابن الاعرابي « اه مجروفه عن التاج .

ولما كان الشك قد طرق معنى القرن ، كان الاقدمون يقولون في مكانه المائة ، من باب الاطلاق . ومنه كلام المؤرخين : جرى هذا الحادث في المائة الاولى ، أو الثانية ، أو الثالثة للهجرة ؛ ولم يقولوا القرن الاول ، أو الثاني ، أو الثالث . ومنه أسماء بعض الكتب : كالدرر الرائعة في شعراء المائة الرابعة ، والدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة ، والحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة لابن الفوطي ، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ، والكواكب السائرة بتناقب أعيان المائة العاشرة لمحمد بن محمد نجم الدين الغزي العامري الدمشقي . الى ما لا يحصى عدده . وقال المولدون مستعملين القرون لمائة سنة : انسان العيون في مشاهير سادس القرون^(١) . والضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، والنور السافر في أخبار القرن العاشر ، وخلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي ، وسلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر وغيرها . والذي يظهر لنا ان القرون جمع قرن معرب من اليونانية قرونس *Khronos,ou* أي الزمان ، أو الوقت من الزمان . ولما عبروا بالقرون توهموا ان مفردها (قرن) لأن اغلب الجموع الواردة على فُعلول يكون مفردها فعلاً بالفتح . ومن الكتاب من حاول ان يقول في مكان القرن : الطبق وذلك لأنه قرأ في كتب اللغة : الطبق ، كسب ، . القرن من الزمان ، او عشرون

(١) فظن أن هذا النوال من وضع بعض المتأخرين ترويحاً للكتاب .

سنة ، (القاموس) . لكن الطبق أيضاً معرب من اليونانية ابق *Épōkhé* بهذا المعنى عينه . بيدانهُ كيف (ابق) صارت (طبق) ، اي كيف حولت الحمزة الى طاء ، ذلك من استمرار الالفة العربية . فقد كانت قوم من الناطقين بالضاد يجعلون الطاء في مكان الحمزة ، فقد قالوا : أرّ الدابة أي ساقها ، وأفر الظبي بمعنى وثب ، وأقلت الشمس بمعنى غابت ، وألّ الابل اي ساقها ، وألّ بالو أي قصر وابطأ . وكانت آخرون يقولون بالطاء اي : طرّ الدابة ، وطرّ الظبي ، وطفك الشمس ، وطلّ الابل ، وطلا يطلو . إذن فالأبق والطبق من هذا القبيل .

٤ - فلان بن فلان لا فلان فلان

يقول المعاصرون مثلاً : محمد حسن حيدر ، وهم يريدون محمد بن حسن بن حيدر . وذلك لا يجوز في لغتنا ، لأن السلف اخلص في نسبهم والفصحاء في لسانهم لم يقولوه البتة ؛ لأن الاسم المضاف عندهم دون المضاف اليه شرفاً وقدرًا . فقولهم كتاب الملك مثلاً ، يدل على ان الكتاب دون الملك قدرًا وشرفًا . وكذلك بيت الملك ونحو ذلك . وأما الابن في نظرهم ونظر كل عاقل فهو بضعة من أبيه ، فهو في درجة القدر والشرف مساوٍ لأبيه دون أدنى فرق . ولهذا قال الأقدمون : محمد بن عبد الله ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن ابي طالب . ولم يضيفوا أسماءهم الى آبائهم . اما اذا اشتهر الرجل بلقب ، ذكروا اسمه وارادوه بلقبه ، فقالوا مثلاً : عامر ماء السماء ، والمنذر المغرور ، والنعمان الاكبر . او كنهه بالكنية التي اشتهر بها فقالوا : ابو يعفر علقمة ، وابو طالب شيخ الابطاح ، وابو بكر الصديق . وان لم يعرف الاب واشتهرت امه نسبه الى امه فقالوا مثلاً : عيسى بن مريم او ابن مريم ، وابن الحنفية^(١) ، وابن القوطية ، وابن حنزابة ، الى غيرهم . أما اضافة أهل هذا العصر اسماءهم الى اسماء آبائهم ، فنشأ من اتصالهم بالترك العثمانيين وذلك ان مشاهير الترك كانوا في الغالب من المماليك ، أخذوا صفاراً ،

(١) [المجمع] لل الاب المحترم وامم في ما قال لأن أبا ابن الحنفية أشهر من ابيهم وانما نسب الى امه لتمييز من أخواته من ابنا . فاطمة عليها السلام وربما كان غيره ممن ذكروهم كذلك .

ولم تُعرف آبائهم ، فنسبوا الى مالكهم ، ثم صاروا وزراء او باشوات . فقالوا سليمان باشا عتيق أحمد باشا ، وعلي آغا مملوك أحمد باشا ، وعبد الله الخزبندار ، مملوك سليمان باشا الكبير ، الى نظائرهم . ثم تركوا هذه التسمية الطويلة المملة ، واقتصروا على ذكر اسم الشخص نفسه مراداً وقالوا شرف ، فقالوا : حسن افندي ، وعمر بك ، وداود باشا ، وهذا هو الاكثر والأشهر ، لا سيما في الايام الاخيرة . وأما الافرنج ، على اختلاف قومياتهم وعناصرهم ، فانهم يعدون الأولاد أغصاناً لِدَوْحَةِ نَسَبِهِمْ ، فيقولون : سلتستر دسامي *Sylvestre de sacy* وكوسن دي پرسقال *Caussin de perceval* وجورج ولهم فريتنج *G. W. Freytag* وغتاف فلوجل *G. Flügel* ور . دوزي *R. dozy* وادورد لين *Ed. lane* ، الى غيرهم وليس في هذه الأسماء اضافة البتة .

٥ - الدهن لا الزيت

العرب لم تسم (زيتاً) إلا الدهن الزيتون . وسموا دهنَ يزر الكتان (زيتاً حاراً) وما عدا ذلك لم يقولوا مثلاً زيت الحجر ، ولا زيت البترول ، بل اطلقوا الدهن على كل مادة جمادية ، او نباتية ، او حيوانية . فمن الأول نقل ابن السطار البتروليون (أي البترول) الى دهن الحجر . ومن الثاني قول الاطباء وعلماء النبات واللغويين : دهن البان ، ودهن الخردل ، ودهن الزنبق ، ودهن الخروع ، الى ما لا يحصى عدده . ومن الثالث قول اللغويين : «تخرط الطائر : اخذ الدهن من مدعنه بزيمكاه» . فقول أصحاب الجرائد : الزيت بمعنى النفط ، او الدهن ، خطأ صريح لا شبهة فيه . فالدهن يقابل الفرنسية *Huile* ، والزيت *Huile D'olive* ، والنفط ودهن الحجر يقابل البترول *Pétrole* .

٦ - النضج لا النضوج

ويقول كثيرون من أرباب الصحف والمجلات : النضوج كالجوس ، وهذا لم يرد على أسئلة كاتب فصيح ، انما الوارد هو النضج بالتحريك ، لكن الكتاب اعتبروا النضوج مصدرأً للآزم فعدوا مصدره كصدر قعد وجلس وبكر ، ولكن

نسوا ان هذه الأفعال وأشباهاها مفتوحة العين في الماضي ، ونضج مكسورها ، وما كان من هذا الباب فمصدره على فَعَلٍ بالتحريك ، كما قال ابن مالك :

وفعل اللّازم بأبه فَعَلٌ كفَرَحَ وكجَوَى وكشَلَلٌ

ويقال أيضاً النَّضَجُ بفتح وسكون والنُّضَجُ بضم وسكون ، وهما اسماء مصدر .

إذن لك أن تقول نَضَجَ ونُضَجَ ونَضَّجَ وهذه بالتحريك . لكن لا نُضوج .

٧ - يحاربُ فلاناً لا يُحارب مع فلان

ومن غريب سوء تصرفهم في معاني الألفاظ العربية ، انهم يقولون مثلاً :

المائة تحارب الآن مع روسية . وهذا خلاف ما يرمون اليه من المعنى . والصواب ان يقولوا : المائة تحارب روسية . وأما قولهم مع روسية ، فمعناه ان المائة قد صادقت روسية وهي الآن تحارب مع صديقتها هذه عدواً لها . ولهذا يقال : المائة تحارب مع ايطالية ، روسية او دولة الروس . وكذلك لا يقال : المائة هي في حرب مع روسية بل المائة في حرب لروسية واما المائة في حرب مع روسية فهذا كلام معناه ان المائة متفقة مع روسية لتحارب دولة أخرى هي عدوتها .

٨ - دولة كذا وكذا ، لا دولتا كذا وكذا ، ولا ما أشبه هذا التعبير

شاع اليوم بين الكتاب قولهم مثلاً : « ذكرت « دولتا » المائة وايطالية ، ان في « شهري » شباط وأذار ، يعقد في « مدينتي » برلين ورومة ، مؤتمر يذكر فيه « قانونا سنتي » كذا وكذا » الى ما أشبه هذا التعبير المولد المحقوت ، اي انهم يثنون المضاف لورود متضمنين مفرقين بعده . وهذا لم يقره الإقدمون ، ولم ينطق به الفصحاء ، ولا البلغاء ، بل يقولون المضاف مفرداً في جميع هذه التراكيب وأمثالها ، كما قال الخدّاق من السلف في عصر العباسيين : جزيرة الرجال وجزيرة النساء ، وقال الصرفيون اسم المكان والزمان ، وظرف الزمان والمكان . ولم يقولوا : جزيرتا الرجال والنساء ، ولا اسماء المكان والزمان ، ولا ظرفا الزمان والمكان . وفي سورة المائدة : « على لسان داود وعيسى بن مريم » ولم يرد « على

لساني داود وعيسى بن مرهم» . واما اذا ثبت المضاف فهذا معناه ان للمضاف
الثنى مضافين اليه لا مضافاً اليه واحداً . فتقولك كتابا الملك والأمير معناه ان
للكتابين وللأمير كتابين ، وأنت لا تريد هذا .

٩ - أيضاً فصيحة ولم تأتِ « كذلك » بمعناها

أخذ بعض الكتاب منذ نحو خمسين سنة يتحاشون عن قولهم « أيضاً »
اعتقاداً منهم ان هذه الكلمة اعجمية الأصل ، ولم يستعملها فصحاء الكتاب في
كلامهم ، وان أعجميتها هي *Item* ، وأما عربيتها فهي « كذلك » - قلنا : وهذا
في منتهى الغرابة . لأن معنى الواحدة غير معنى الآخرة . فمعنى « أيضاً » : عوداً
وتكراراً ، او ما أشبه هذا المعنى . والكلمة مفعول مطلق لفعل « آض بيض » اي
عاد يعود عوداً . قال في الكليات : « أيضاً ، مصدر آض ، ولا يستعمل الا مع شيئين
بينهما توافق ، ويمكن استغناء كل منهما عن الآخر ؛ فنخرج نحو جاءني زيد أيضاً ؛
وجاء فلان ومات أيضاً ؛ واختصم زيد وعمرو أيضاً ؛ فلا يقال شيء من ذلك .
وهو مفعول مطلق حذف عامله وجوباً سماعاً ، كما نقل ومعناه : عاد هذا عوداً على
الهيئة المذكورة ؛ او حال من ضمير المتكلم ، حذف عاملها وصاحبها ، اي أخبر
أيضاً ، أو أحكي أيضاً ، اي راجعاً . وهذا هو الذي يستمر في جميع المواضع «
اه بحروفه . (وقد نقل هذه العبارة بطولها وعرضها صاحب محيط المحيط بصرف
قليل ، ولم يشر الى مأخذه . وكذلك نقلها ابن عابدين في رسالته الفوائد العجيبة ،
في اعراب الكلمات الغريبة في ص ٤ ولم يشر الى هذا المصدر نفسه) .

فأين هذا التعليل الفلسفي ، المنطقي ، التحوي ، من قول الأديب المصري انه
مغرب من اللاتينية ؟ وقد وردت الكلمة عشرات لا تحصى في كلام الجاحظ وهو
من أقدم الكتاب ، وأفصحهم ، وأبلغهم . وُلد في سنة ١٦٣ للهجرة وتوفي سنة
٢٥٥ . (راجع مثلاً الجزء الأول من كتاب الحيوان . البابي . ص ٥٠ ٥٧٦
١٥٦ ، ١٠٧ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٣٥ ، ١٥٨ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤

٢٦٧ ٢٧٦ ٢٧٩ الى غيرها . وزد على هذا ان معنى (كذلك) مثل ذلك ، لا أيضاً . فكيف تقوم الواحدة مقام الأخرى في معناها (١) .
ثم لو اجتمعت (أيضاً) و (كذلك) في عبارة واحدة — وهذا ما يدل على أن معنى الكلمة الواحدة غير معنى الكلمة الثانية — فكيف تُنزعُ (أيضاً) من مكانها وكيف يوضع في محلها كلمة أخرى . فقد جاء مثلاً في كتاب الحيوانات المذكور (١ : ١١٥) هذه العبارة : « وقد توجد المرأة ذات رجليه ، وقد رأيتُ « ذلك » و أكثر ما رأيتُهُ في عجائز الدهاقين ، و « كذلك » الغيب والشارب ، وقد رأيتُ « ذلك أيضاً » . فهذه الكلمات الثلاث لا تقوم الواحدة مقام الأخرى . وجاء في كتاب الفروق اللغوية لأبي حلال العسكري ، وقد ألفه سنة ٣٩٥ للهجرة ، فذكر في ص ٣٢٥ من طبع القاهرة هذه العبارة : « والدهر « أيضاً » لا يكون إلا ساعات قليلة ، ويكون الحين « كذلك » انتهى .

وقد استعمل الجاحظ « كذلك » عشراتٍ لا تحصى لمعنى كذلك راجع مثلاً كتاب الحيوان . البابي ١ : ٢١ ٢٧ ٣٧ ٩١ الى آخر ما هناك فهل يقال بعد هذا ان (أيضاً) غير عربية ، وان عربيته (كذلك) ؟

يتبع : الاب أنستاس ماري الكرملّي

(١) قال الأديب المصري في ما قرأناه قبل نحو أربعين سنة أن الفعل آض أيضاً لم يرد في الآيات القرآنية .

قلنا : هذا صحيح لكنه ورد في حديث الكسوف في قوله : [حتى آضت الشمس ، أي رجعت .
قال : آض يبيض أيضاً ، أي صار ورجع] (النهاية لابن الأثير) . وقد وردت أيضاً على يراعة سيويه ، (للتوفى سنة ١٨٠ للهجرة) وهو تلميذ الخليل بن أحمد ، سراً لا تحصى في كتابه من ذلك في ١ : ٢١١ من طبعة مصر : [ومن ذلك (أيضاً) قولك : إن تأتي ، إذن آئك] وفي ١ : ٢٨٣ : [ومع هذا (أيضاً) انه قد كثر في كلامهم حتى حذفوا فيه (إنه) و (إنه) لا تحذف في غير ذا] انتهى . ولا يزيد أن نحن في ذكر الشواهد ، إذ هذا من باب تحصيل الحاصل ، وليس هناك جدوى أكثر مما ذكرنا .